الباب الثاني

عالمية الشريعة الإسلامية

الفصل الأول :

ما هي الضرورة إلىٰ عالمية الشريعة الإسلامية؟!

الفصل الثاني :

نماذج من عالمية الشريعة الإسلامية .

مدخل

في منظور الشريعة ، كل البشر عباد لله ، ذلك لأن الله الواحد هو ربّ الناس جميعاً ، لا ربّ شعب ألماني أو يهودي ، إنما هو كما قال الله تعالىٰ :

﴿ إِن كُلُّ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ إِلَّآ ءَاتِي ٱلرَّحْمَٰنِ عَبْدًا ﴾ [مريم : ٩٣] .

لذلك خاطبت العقيدة العالم كله بالإيمان بالله سبحانه لا شريك له ، دون أن تحدد العقيدة الإسلامية أمةً أو شعباً أو قبيلة بشيء خاص ، إنما المسألة كما قال الله تعالىٰ :

﴿ فَلِلَّهِ ٱلْحَمْدُ رَبِّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَرَبِّ ٱلْأَرْضِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الجاثية : ٣٦] .

كذلك توجهت الشريعة الإسلامية إلىٰ كل فرد من أفراد البشرية أنه متساوٍ مع الآخرين أمام القضاء وأمام الأخلاقيات وأمام الحقوق والواجبات ، لذلك لا يجوز للمسلم أن يعتدي على نصراني أو يهودي أو مجوسي أو كافرٍ ، بل لا يجوز له أن يعتدي حتىٰ علىٰ الحيوان ، لذلك وقف التاريخ بشكل مذهولٍ أمام الأخلاق الحربية التي حملها المسلمون ، فلا يُقتل شيخ كبير ، ولا امرأة ، ولا رهبان ، ولا طفل صغير ، ولا تُقطع شجرة ولا تُحرق ، ولا يُمثّل بالقتلىٰ ، ولا غدر ولا خيانة ، لأن البشر كلهم مكرمون . قال الله تعالىٰ :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِيٓ ءَادَمَ ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

وقال أيضاً : ﴿ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُوا۟ ٱعْدِلُوا۟ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ﴾ [المائدة : ٨] .

وكل الأخلاق التي طرحتها الشريعة الإسلامية لا تتجه إلىٰ المسلمين فقط ، إنما تتجاوز ذلك إلىٰ كل بني الإنسان .

وهكذا يتسع التشريع الإسلامي لجميع البشر ، وبالتالي يراعي مصلحة الفرد والجماعة معاً ، ولا يغلّب مصلحة الجماعة ـ كما في النظام الشيوعي ـ علىٰ مصلحة الفرد ، ولا يغلّب مصلحة الفرد ـ كما في النظام الرأسمالي ـ على مصلحة الجماعة .

وبهذا كله ـ وبغيره ـ كانت سمة الإسلام هي السمة العالمية وفي كل وقت وحين .

* * *

الفصل الأول

ما هي الضرورة إلى عالمية الشريعة الإسلامية؟!

إن المتأمل بما نُقل إلينا عن الوضع العام قبيل مبعث سيدنا رسول الله ﷺ ، يوقن تماماً أن العالم بأسره كان مستعداً ، بل كان بحاجة ماسة إلىٰ استقبال شريعة عالمية ، لا تحدها الحدود الجغرافية ولا غيرها .

ذلك لأن القرنين السادس والسابع للميلاد كانا كأسوأ ما عرفه التاريخ ، فالناس عبيد يقدسون سلالات تدعي الأحقية في حكم الناس من خلال أن الله أعطاهم ذلك الحق ، وما آل ساسان في فارس ، وملوك الصين ، وإمبراطوريات الرومان ، إلا نماذج عن ذلك .

وهكذا بعدت المسافة بين تعاليم السماء وبين الأرض ، فنسي الناس الخالق سبحانه وزُورت تعاليم الأنبياء عليهم السلام ، وانزوىٰ كهنة الأديان بالكنائس والأديرة ، وتُرك الشعب المسكين يتخبط بين جشع أصحاب رؤوس الأموال وبين أفكار مثالية لا رصيد لها على أرض الواقع[1] .

---

(١) للتوسّع في ذلك يراجع : سيرة سيّد الأنام عليه الصلاة والسلام ، الجزء الأول : ١٧ـ٣٤ ، للمؤلف .

فإمبراطورية فارس كانت تدين بالزرادشتية ، حيث قدّست أهلها النار والشمس ، وانحسر دور الدين عندهم بالمعابد فقط ، أما خارجها فهم أحرار يتبعون لذاتهم وشهواتهم .

وأما الملوك عندهم فقد أقنعوا الناس أن دماء الآلهة تجري في عروقهم ، لذلك فكل ما في البلاد أصبح ملكاً لهم ، فعاشوا حياة الترف ، بينما بقي الشعب المسكين يعاني البؤس والشقاء ، وانتشرت عادات ما أنزل الله بها من سلطان كالزواج بالمحرمات ، خاصة عند ظهور فكرة (المزدكية) التي دعت إلىٰ إباحة الأموال والنساء!!

ومثل ذلك الإمبراطورية الرومانية : التي اختلفت الفئات فيها علىٰ حقيقة المسيح ، ولم تتفق إلا عندما طورت العقيدة إلىٰ التثليث ، وفي ذلك يقول الدكتور غوستاف لوبون : (ولقد أكرهت مصر علىٰ انتحال النصرانية ، ولكنها هبطت بذلك إلىٰ حضيض الانحطاط الذي لم ينتشلها منه سوى الفتح العربي ، وكان البؤس والشقاء مما كانت تعانيه مصر التي كانت مسرحاً للاختلافات الدينية الكثيرة في ذلك الزمن ، وكان أهل مصر يقتتلون ويتلاعنون بفعل تلك الاختلافات ، وكانت مصر التي أكلتها الانقسامات الدينية ، وأنهكها استبداد الحكام تحقد أشد الحقد علىٰ سادتها الروم ، وتنتظر ساعة تحريرها من براثن قياصرة القسطنطينية الظالمين) .

وكان التقديس للملوك عندهم قد بلغ مبلغاً كبيراً ، فهم يسجدون للملك ، ويعتقدون أنه من سلالة الآلهة ، وكل مهمة مجلس الشيوخ تأكيد صحة ما يقول الملك!!

من جهة أخرىٰ ارتفعت الأسعار عندهم وزادت الضرائب وانتشرت الرشوة والاستغلال الاقتصادي والاستبداد السياسي . . .

وكذلك الهند لم تكن أحسن حالاً : لقد اتخذوا آلهة ومعبودات يرفضها العقل السليم ، كالبقر ، ونهر الغانج ، وغير ذلك ، وكل فترة يزيدون تمثالاً جديداً لآلهة جديدة!!

ووصل السُّخف عندهم إلى أن عبد الرجال النساء العاريات وعبد النساء الرجال العراة!! بل وانتشرت الدعارة الجنسية بين صفوف الكهنة في المعابد!!

وأهينت المرأة إلىٰ درجة أن الرجل كان يخسر امرأته في القمار .

والكلام نفسه يقال في الوضع العام للصين .

أما الجزيرة العربية فقد تغلغل فيها اليهود ، أولئك القوم الذي حرّفوا التوراة ، وعاشوا التكالب الكبير على متع الدنيا ، سواءً كانت حلالاً أم حراماً .

وفي مكة وبعض الأماكن في الجزيرة العربية كان البعض يدينون بدين إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام ، لكن لم يبق من تلك الديانة إلا القليل ، وأدخلت الأصنام إلىٰ معابدهم وبيوتاتهم ، وجحدوا باليوم الآخر :

﴿ وَقَالُوٓاْ أَءِذَا كُنَّا عِظَٰمًا وَرُفَٰتًا أَءِنَّا لَمَبْعُوثُونَ خَلْقًا جَدِيدًا ﴾ [الإسراء : ٤٩] .

لكن هذا التخبط تراه يقترب تارة من الأديان ويبتعد أخرى ، لذلك كانوا يحجون إلىٰ بيت الله الحرام ، ويفلسفون مسألة عبادة الأصنام بأنها تقربهم إلىٰ الله فقط :

﴿ مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلْفَىٰٓ ﴾ [الزمر : ٣] .

من جهة أخرىٰ ظهرت عادات الأخذ بالثأر ، وانتشر الزنىٰ ، وأهينت المرأة ، حتى وئدت البنات خوف العار ، وتعاملوا كثيراً بالربا . . .

إذاً :

كانت الضرورة ملحةً لمجيء المنقذ ، لا لينقذ قبيلته فقط ، ولا لينقذ أمته فقط ، بل لينقذ العالم كله ، أي لتكون شريعته هي الشريعة العالمية التي تخرج الناس من الظلمات إلى النور ، وتقضي علىٰ كل الأوضاع السيئة التي سادت فترةً من الزمن ، وتعيد الناس إلىٰ جادة الصواب ، فكان ذلكم المنقذ هو سيدنا رسول الله ﷺ ، لذلك وخلال سنوات قليلة رفع لواء التوحيد فقضىٰ علىٰ الأصنام والعقائد الفاسدة ، وحوَّل العرب الذين كانوا ألعوبة في يد اليهود والرومان ، إلى سادة للدنيا ، وأخرج العباد ـ وفي كل العالم ـ من جور الحكام والسجود للدجاجلة إلىٰ عدل الإسلام ، وهكذا تلقف الناس دعوته ، لتدخل الجزيرة العربية في الدين الحنيف أفواجاً ، ثم لتدخل شعوب من هنا وهناك ، حتىٰ وصلت الأنوار الإيمانية إلىٰ كل أصقاع المعمورة ، لذلك فليس هناك مكان في العالم إلا وتسمع فيه : الله أكبر .

وهذا تفسير عالمية الرسالة ، من خلال عالمية الرسول الخاتم ﷺ ، لذلك ومنذ الأيام الأولى للرسالة ، حدّد المسار والهدف ، وذلك في قوله تعالىٰ :

﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

وكذلك : ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةٗ لِّلنَّاسِ بَشِيرٗا وَنَذِيرٗا ﴾ [سبأ : ٢٨] .

كذلك : ﴿ قُلۡ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّي رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيۡكُمۡ جَمِيعًا ﴾ [الأعراف: ١٥٨].

وهكذا نفهم أن أسباب إرسال الرسل إلىٰ قومهم خاصة ، أنهم كانوا يحملون مهمة واحدة هي ضم الأفراد في جماعات ، وأما رسول الله العالمي فجاء بمهمة أكبر وهي ضم تلك الجماعات في أمة واحدة :

﴿ وَإِنَّ هَٰذِهِۦٓ أُمَّتُكُمۡ أُمَّةٗ وَٰحِدَةٗ وَأَنَا۠ رَبُّكُمۡ فَٱتَّقُونِ ﴾ [المؤمنون : ٥٢] .

وهناك شيء آخر يتعلق بالدين الذي جاء به رسول الله ﷺ : فهو دين لا يأخذ جانباً واحداً من حياة الفرد أو الجماعة ، بل إنه يتابع مسيرة الفرد من قبل أن يستهلّ إلىٰ الدنيا ، وحتىٰ ما وراء الموت ، فهو يتدخل في جزئيات اختيار المرأة كشريكة للرجل ، ويتدخل في العلاقات العامة ـ حتىٰ الجنسية ـ بين الرجل والمرأة ، وهو يتدخل في شؤون الأسرة والدولة والأنظمة العامة وفي كل شيء ، والهدف من ذلك كله ألا يعيش الفرد حالات التخبّط والمتاهات والفراغ .

كذلك ، فهذا الدين لا يميل مع فئة الحكام ضد العبيد ، ولا مع الأغنياء ضد الفقراء ، ولا مع الرجال ضد النساء ، إنما هو مجرد عن الهوىٰ ، يراعي مصلحة الفرد ومصلحة الجماعة وهذه هي إحدى أسس نظامٍ يتصف بالعالمية ، وبالتالي فالميزان الذي جاء به الرسول ﷺ إذا طُبّق في أي زمان أو مكان عاشت الأمم والأفراد عيشة راضية لا تسمع فيها لاغية!!

السور المكية تصف عمّ النبي وصفاً سيئاً ، ليكون ذلك إلىٰ يوم الدين دستوراً تقرؤه الأجيال لتفهم أن القرابة ـ النسب ـ لا تعطي ميزات خاصة أبداً ، إنما المسألة :

﴿ تَبَّتْ يَدَآ أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ۝١ مَآ أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُۥ وَمَا كَسَبَ ۝٢ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ۝٣ وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ ۝٤ فِى جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴾

[المسد : ١ـ٥] .

بينما في الكفة الثانية : عبدٌ من إيران ، يقطع البَيْداوات والقفار ، ليعلن إسلامه ويتمسك حقيقة بتلك التعاليم ، يقول عنه الرسول ﷺ : « سلمان منا آل البيت » وفي رواية أخرى : « لا تقولوا سلمان الفارسي ، إنما قولوا : سلمان المحمدي » هذا هو الميزان الذي يصلح لكل الأزمان والأمكنة ، فالعنوان العريض :

﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

لا فرق بين أبيض وأسود إلا بالتقوى . « لا فضل لعربي علىٰ أعجمي ، ولا لأبيض علىٰ أسود إلا بالتقوى » وكم هو الفرق الكبير بين ميزانٍ كهذا الميزان ، وبين ما كانت عليه أمور الأمم السابقة ، . . . وما تسير عليه أمم الأرض اليوم؟ !(١) .

وهذا هو التوجيه القرآني لرسول الله ﷺ بألا يحابي أحداً للونه أو قرابته أو نسبه أو ماله أو زعامته ، إنما أن يسير علىٰ منهج محدد مضبوط ، قال الله تعالىٰ :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴾

[الجاثية : ١٨] .

كذلك فالدين الذي جاء به رسول الله ﷺ هو الدين الذي يجمع بين التطلّع إلىٰ حاجات الجسد وحاجات الروح ، وهذه عالمية الرسالة ، عالمية الشريعة ، عالمية الدين حقاً .

فالنصرانية أوغلت في الحديث عن جوانب الروح ، لكنها أهملت الجوانب المتعلقة بالجسد ، على العكس من اليهودية ، لكن الإسلام العظيم جاء ديناً وسطاً ، التفت إلىٰ الجانب المادي عند الإنسان فاهتم به ، والتفت إلىٰ الجانب الروحي فاهتم به ، لذلك حرّم الإسلام الرهبانية ، وحضّ على الزواج ، واعتبر اللقمة التي يضعها الرجل في فم امرأته صدقة ، وهناك من الذنوب ذنوبٌ ليس لها كفارة بأمور تعبدية كالصلاة ونحوها ، إنما كفارتها السعي وراء لقمة العيال . وهكذا :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نُودِىَ لِلصَّلَوٰةِ مِن يَوْمِ ٱلْجُمُعَةِ فَٱسْعَوْا۟ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ

---

(١) للتوسع في الحديث عن الميزان يراجع : الفقراء والأغنياء في ميزان الشريعة الإسلامية ، للمؤلف : ٩١ـ١١٧ .

﴿وَذَرُوا الْبَيْعَ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ۝٩ فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [الجمعة : ٩-١٠] .

وكأن الله يقول لك : إذا سمعت نداء الصلاة فاهرع إلىٰ المسجد لتؤدي ما افترضه الله عليك ، لكن إذا انتهيت من ذلك فلا تجلس في المسجد ساعات وساعات ، إنما انطلق إلىٰ الكفاح ، إلى إغناء نفسك وعيالك ، لأن الله يحب اليد العليا ويكره التسول ، وبهذا فأنت تنتقل من عبادة الصلاة في المسجد إلىٰ عبادة أخرىٰ وهي تحصيل الرزق الحلال ، وفي أي مجالات الأنشطة الاقتصادية .

وإذا نظرنا اليوم إلىٰ ما يحدث فيما تسمىٰ بلاد النور والحضارة ، سواءً كان ذلك في أمريكا أو أوروبة نرى عجباً :

هناك انتصارات مادية مذهلة ، فلقد حطّ الإنسان علىٰ سطح القمر ، ولقد اكتشف الكثير من المجرات ، واستطاع القضاء على كثير من الأمراض المستعصية ، ووفر الرفاهية الكبيرة للإنسان ، وأحدث ثورات رهيبة في مجالات وسائل الإعلام وما إلىٰ هنالك . . . لكن الإنسان هناك يعيش القلق النفسي ، ويعيش التمزّق الروحي ، ويعيش الحيرة بعد الحيرة ، ويلجأ إلىٰ الحشيش والمخدرات ، ويهبط في ممارسته الجنسية إلىٰ أدنىٰ من حيوانية الحيوان ، ويخرج بتقليعات ـ صرعات ـ عجيبة ، فلماذا ذلك كله؟!

إنه الفراغ القاتل ، والذي جاء من جرّاء الاهتمام بجانب واحد ، علىٰ حساب جانب آخر ، لذلك عندما يصل المواطن هناك إلىٰ درجات الترف دون ضوابط دينية أخلاقية عندها لا يجد للحياة أي طعم يُذكر فيُقدم علىٰ الانتحار وما إلىٰ هنالك .

أما المنهج العالمي الذي أُرسل به رسول الله الخاتم محمد ﷺ فعنده

الحل الناجع والدواء الناجح لأمراض الأمم السابقة وأمراض الأمم المعاصرة وأمراض الأمم القادمة .

وإلا : ﴿ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ [آل عمران : ٨٣] .

﴿ هَٰذَا خَلْقُ ٱللَّهِ فَأَرُونِى مَاذَا خَلَقَ ٱلَّذِينَ مِن دُونِهِۦ ﴾ [لقمان : ١١] .

أجل ، لقد حدد الدين الذي جاء به الرسول للناس الوظيفة الأساسية علىٰ سطح الأرض ، وهي وظيفة الخلافة في الأرض ، وبالتالي أن يعيش الجميع تحت مظلة الدين الحنيف بهدف التعارف والتعاون ، لا بهدف أن يستولي الأقوياء علىٰ الفقراء وينهبوا ثرواتهم ومقدراتهم ، ولا بهدف الظلم والاقتتال ، قال الله تعالىٰ :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

وبالتالي فالبشر عند الله جميعاً مكرمون ، لا لجنس ينتمون إليه ، ولا للون يحملونه ، ولا لقوم أو عشيرة ينتسبون إليها ، إنما لأنهم بشر من سلالة آدم عليه السلام ، قال الله تعالىٰ :

﴿ ۞ وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَرَزَقْنَٰهُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَفَضَّلْنَٰهُمْ عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا ﴾ [الإسراء : ٧٠] .

كذلك ، فهذا الدين الإسلامي لا يجمع الناس علىٰ مذهب سياسي أو إيديولوجية اقتصادية وما إلىٰ هنالك ، إنما يجمع الناس علىٰ عقيدة التوحيد ، ليميز بين حزب الله الذي يحمل هذه العقيدة ، وبين حزب المعارضة له وهو حزب الشيطان ، لذلك فالمنتمون إلىٰ حزب الله لا تقف أمامهم حدود جغرافية ولا ينتمون إلىٰ أسماء وضعها الأعداء هنا وهناك إنما يصيح واحدهم :

أبـي الإسـلام لا أب لـي سـواه إذا افتخـروا بقيـسٍ أو تميـم

ليردّ الآخر :

وأينمـا ذُكـر اسـم الله فـي بلـدٍ جعلـت أرجـاءه مـن لـبّ أوطـان

ثم يلتفت إلىٰ الآخرين ليقول لهم : أنتم أحرار فيما تعتقدون :

﴿ لَآ إِكْرَاهَ فِي ٱلدِّينِ ۖ قَد تَّبَيَّنَ ٱلرُّشْدُ مِنَ ٱلْغَيِّ ۚ فَمَن يَكْفُرْ بِٱلطَّٰغُوتِ وَيُؤْمِنۢ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱسْتَمْسَكَ بِٱلْعُرْوَةِ ٱلْوُثْقَىٰ لَا ٱنفِصَامَ لَهَا ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٥٦] .

لكن شريطة ألا تقفوا حاجزاً منيعاً أمام وصول نور الإسلام إلىٰ شعوبكم وأفرادكم .

* * *

وهكذا جاءت الشريعة الإسلامية لا لترقّع ما تمزّق ، بل المسألة شيء آخر ، لقد جاءت لتنسخ الشرائع كلها ، وتضع بديلاً آخر ينطبق مع التوجه الجديد ، فالأديان السابقة كانت مهمتها تنحصر بأمة ما ، كالنصرانية لأتباع المسيح عليه السلام ، واليهودية لأتباع موسىٰ عليه السلام ، أما الشريعة الخالدة العالمية فهي لجميع البشر وإلىٰ قيام الساعة .

لذا كان لابد من نسف العادات البالية وإبدالها بعادات حسنة ، تناسب الإنسان كل الإنسان ، وهذا المنهج رسمه القرآن الكريم وهو يحدد مهام النبي العالمي الخاتم ﷺ :

﴿ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ ﴾ [الأعراف : ١٥٧] .

وهكذا كان التركيز في العهد المكي علىٰ استئصال الأورام الخبيثة من فكر عفن وعقائد باطلة ، ليستبدلها بـ : « قولوا لا إله إلا الله تفلحوا » فلم يأمرهم بتفصيلات المعاملات المالية أو الأمور الإدارية أو ما إلىٰ هنالك ،

إنما ركز الهدف حول إرساء العقيدة في القلوب والعقول ، ليحمل الفرد النور والخير والهداية ، وينطلق إلىٰ جميع أصقاع المعمورة بهدف نشر الفضائل والأخلاق الحميدة .

لذلك كان المجتمع ينتظر وبفارغ الصبر واحداً ينقذ الموقف المتردي ، فكان الرسول العالمي المنقذ ﷺ وكانت الشريعة الغراء العالمية ، وكان :

﴿ إِنَّ ٱلدِّينَ عِندَ ٱللَّهِ ٱلْإِسْلَٰمُ ﴾ [آل عمران : ١٩] .

عندئذ من أراده الله ليكون داعية وحامل مشعل النور ، من صحابة ومن بعدهم ، اقتنع الواحد منهم أن الكون كله ملك لله :

﴿ وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ ﴾ [هود : ١٢٣] .

﴿ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ﴾ [الرعد : ٣١] .

لذلك سلّم الأمر كله لله ، وسار على نهج جده الأكبر خليل الرحمن إبراهيم عليه السلام :

﴿ إِذْ قَالَ لَهُۥ رَبُّهُۥٓ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [البقرة : ١٣١] .

وانضبط الكل بضوابط العدالة ، فكلٌّ مسؤول عن عمله ، ولا أحد يحمل وزر أحد . قال تعالىٰ :

﴿ كُلُّ ٱمْرِئٍۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ ﴾ [الطور : ٢١] .

﴿ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴾ [النجم : ٣٩] .

﴿ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء : ١٤] .

﴿ تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْـَٔلُونَ عَمَّا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴾ [البقرة : ١٣٤] .

وبالتالي ، فالجميع يخضعون لرب واحد ، خالق كل شيء :

﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ

تَرَىٰ مِن فُطُورٍ ﴿٣﴾ ثُمَّ ٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ كَرَّتَيْنِ يَنقَلِبْ إِلَيْكَ ٱلْبَصَرُ خَاسِئًا وَهُوَ حَسِيرٌ﴾

[الملك : ٣ـ٤] .

ويشعر العاقل ـ حتى لو كان غير مؤمن ـ أن هناك هاتفاً داخلياً يلحّ عليه باللجوء إلىٰ الله ، خاصة وقت المحن والشدائد ، قال الله تعالىٰ :

﴿ وَإِذَا مَسَّ ٱلْإِنسَٰنَ ٱلضُّرُّ دَعَانَا لِجَنۢبِهِۦٓ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَآئِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُۥ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَآ إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُۥ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾

[يونس : ١٢] .

لأن الشعور بالله جزء من الطبيعة البشرية . قال الله تعالىٰ :

﴿ وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ وَنَعْلَمُ مَا تُوَسْوِسُ بِهِۦ نَفْسُهُۥ ۖ وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ ٱلْوَرِيدِ﴾

[ق : ١٦] .

هذا الاعتقاد بالخضوع لرب واحد يعتبر واحداً من الركائز التي تدل علىٰ عالمية الشريعة الإسلامية ، ومثلها مسألة الانتماء إلىٰ إنسانية واحدة ، مهما كان اللون أو الجنس أو الانتماء المذهبي . . . قال تعالىٰ :

﴿ كَانَ ٱلنَّاسُ أُمَّةً وَٰحِدَةً فَبَعَثَ ٱللَّهُ ٱلنَّبِيِّـۧنَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ لِيَحْكُمَ بَيْنَ ٱلنَّاسِ فِيمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ ۚ وَمَا ٱخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا ٱلَّذِينَ أُوتُوهُ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۖ فَهَدَى ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَا ٱخْتَلَفُوا۟ فِيهِ مِنَ ٱلْحَقِّ بِإِذْنِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ [البقرة : ٢١٣] .

* * *

الفصل الثاني

نماذج من عالمية الشريعة الإسلامية

في الكتب السماوية السابقة حديث طويل عن مسألةٍ ذات أهمية ، ألا وهي بشارات الله للأمم السابقة بأن نبياً يأتي في آخر الزمان ، ويحمل معه كتاباً سماوياً خاتماً للكتب السماوية ، فإن عاش منكم أحد ـ يا أهل الكتب السابقة ـ إلىٰ حين مبعثه ، فما عليكم إلا الطاعة والسمع له ، فهو النبي الخاتم ، وهو النبي العالمي لكل الأفراد والأمم ، من ذلك وعلى سبيل المثال لا الحصر :

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ : فالذي يقطع به من كتاب الله وسنة رسوله من حيث المعنىٰ أن رسول الله قد بشرت به الأنبياء قبله ، وأتباع الأنبياء يعلمون ذلك ولكن أكثرهم يكتمون ذلك ويخفونه ، قال الله تعالىٰ :

﴿ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلرَّسُولَ ٱلنَّبِيَّ ٱلْأُمِّيَّ ٱلَّذِى يَجِدُونَهُۥ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ يَأْمُرُهُم بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَىٰهُمْ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ ٱلطَّيِّبَٰتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ ٱلْخَبَٰٓئِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَٱلْأَغْلَٰلَ ٱلَّتِى كَانَتْ عَلَيْهِمْ ۚ فَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِهِۦ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَٱتَّبَعُوا۟ ٱلنُّورَ ٱلَّذِىٓ أُنزِلَ مَعَهُۥٓ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٥٧﴾ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾

[الأعراف : ١٥٧ـ١٥٨] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَعْرِفُونَهُۥ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَآءَهُمْ ۖ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ ٱلْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ١٤٦] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَقُل لِّلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْأُمِّيِّـۧنَ ءَأَسْلَمْتُمْ ۚ فَإِنْ أَسْلَمُوا۟ فَقَدِ ٱهْتَدَوا۟ ۖ وَّإِن تَوَلَّوْا۟ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ ﴾ [آل عمران : ٢٠] .

وقال تعالىٰ : ﴿ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَ ۚ ﴾ [الأنعام : ١٩] .

وقال تعالىٰ : ﴿ هَٰذَا بَلَٰغٌ لِّلنَّاسِ وَلِيُنذَرُوا۟ بِهِۦ ﴾ [إبراهيم : ٥٢] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَن يَكْفُرْ بِهِۦ مِنَ ٱلْأَحْزَابِ فَٱلنَّارُ مَوْعِدُهُۥ ۚ ﴾ [هود : ١٧] .

وقال تعالىٰ : ﴿ لِّيُنذِرَ مَن كَانَ حَيًّا وَيَحِقَّ ٱلْقَوْلُ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴾ [يس : ٧٠] .

فذكر تعالىٰ بعثته إلىٰ الأميين وأهل الكتاب وسائر الخلق من عربهم وعجمهم ، فكل من بلغه القرآن فهو نذير له ، قال ﷺ : « والذي نفسي بيده لا يسمع بي أحد من هذه الأمة يهودي ولا نصراني ولا يؤمن بي إلا دخل النار »[1] .

وفي الصحيحين : « أعطيت خمساً لم يعطهنّ أحد من الأنبياء قبلي ، نصرت بالرعب مسيرة شهر ، وأحلّت لي الغنائم ولم تحلّ لأحد قبلي ، وجعلت لي الأرض مسجداً وطهوراً ، وأعطيت الشفاعة ، وكان النبي يبعث إلىٰ قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة ، وفيهما : بعثت إلىٰ الأسود والأحمر قبل العرب والعجم »[2] . وقيل : إلىٰ الإنس والجن ، والصحيح أعم من ذلك[3] .

---

(١) صحيح مسلم : رقمه (٢٤٠) .

(٢) صحيح البخاري : ٦/ ٤٦٢ ، صحيح مسلم : رقمه (٢٨٨٩) ، سنن الترمذي : رقمه (٢٧٧٥) .

(٣) للتوسع يراجع البداية والنهاية : ٦/ ١٣٤ .

وهكذا تتالت البشارات بهذا النبي العالمي ﷺ ، من ذلك ما جاء في التوراة التي بلغها موسىٰ عليه السلام :

جاء في سفر الميعاد : أن موسىٰ عليه السلام خطب في بني إسرائيل في آخر عمره ، وذكّرهم بأيام الله وأياديه عليهم وإحسانه إليهم وقال لهم فيما قال : واعلموا أن الله سيبعث لكم نبياً من أقاربكم مثلما أرسلني إليكم يأمركم بالمعروف وينهاكم عن المنكر ويحل لكم الطيبات ويحرم عليكم الخبائث فمن عصاه فله الخزي في الدنيا والعذاب في الآخرة .

وجاء في صحف أشعيا ـ في معاتبته لبني إسرائيل ـ : فإني أبعث إليكم وإلىٰ الأمم نبياً أميّاً ليس بفظ ولا غليظ القلب ولا صخّاب في الأسواق ، أصدره لكل جميل وأحبب له كل خلق كريم ، ثم أجعل السكينة لباسه والبر شعاره والتقوىٰ في ضميره والحكمة مقولته والوفاء طبيعته والعدل سيرته والحق شريعته والهدىٰ ملته والإسلام دينه والقرآن كتابه ، أحمد اسمه أهدىٰ به الضلالة وأرفع به بعد الخمالة وأجمع به بعد الفرقة وأؤلف به بين القلوب المختلفة ، وأجعل أمته خير أمة أخرجت للناس ، قرابينهم دماؤهم ، وأناجيلهم في صدورهم ، رهباناً بالليل ، ليوثاً بالنهار .

وفي السفر الأول من التوراة : إن ولد إسماعيل تكون يده علىٰ كل الأمم ، وكل الأمم تحت يده وبجميع مساكن إخوته يسكن .

أجل ، فقد أرسل الله سبحانه الأنبياء من قبل ، وأخبر كل واحدٍ بضرورة تصديق رسالة آخرهم وخاتمهم محمد ﷺ ، وأعطاهم دليلاً علىٰ صدقه شهادته وإقراره بكل الرسالات السابقة للأنبياء من قبله ، لذلك أُرسل كل واحد منهم إلىٰ قبيلة هنا أو شعب هناك .

وقد يكون ـ والله العالم ـ سبب ذلك : أن الشعوب وقتئذٍ كانت معزولة عن بعضها ، فكانت كل رسالة تأتي لتحسّن وتكمّل الرسالات

السابقة ، حتى كانت الرسالة الخاتمة فتكون عالميةً بكل ما فيها :

﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾

[المائدة : ٣] .

وكان الرسول العالمي دعوة أبيه الخليل إبراهيم عليه السلام ، وذلك عندما كان يبني مع ابنه إسماعيل البيت الحرام ، رفع يديه قائلاً :

﴿ رَبَّنَا وَٱبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [البقرة : ١٢٩] .

وقال تعالىٰ : ﴿ ۞ وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِى ۖ قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [البقرة : ١٢٤] .

وكان الرسول العالمي بشارة أخيه عيسىٰ عليه السلام ، ففي الإنجيل يقول عيسى لأتباعه : إني مرتق إلىٰ صفات العلىٰ ، ومرسل إليكم (الفارقليط = وهو محمد ﷺ) روح الحق يعلمكم كل شيء .

وصدّق القرآن ذلك : ﴿ وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ ﴾ [الصف : ٦] .

أما كيف ركز القرآن على مسألة عالميته ، فنرى ذلك واضحاً في خطابات الله في القرآن ، كان الحديث والخطاب عاماً ، فمثلاً نرى كثيراً من الآيات تخاطب بكلمة ﴿يا أيها الناس﴾ لتدلنا علىٰ عالمية الرسالة القرآنية ، قال تعالىٰ :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ٱلَّذِى لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِ ٱلنَّبِىِّ ٱلْأُمِّىِّ ٱلَّذِى يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَكَلِمَٰتِهِۦ وَٱتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [الأعراف : ١٥٨] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَقُرْءَانًا فَرَقْنَٰهُ لِتَقْرَأَهُۥ عَلَى ٱلنَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ وَنَزَّلْنَٰهُ تَنزِيلًا ﴾

[الإسراء : ١٠٦] .

وقال تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨] .

وقال تعالىٰ : ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

[الأعراف : ١٥٨] .

قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالىٰ :

يقول تعالىٰ لعبده ورسوله محمد ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا ﴾ . أي إلى جميع الخلائق من المكلفين ، كقوله تعالىٰ :

﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنِّى رَسُولُ ٱللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا ﴾

﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

﴿بشيراً ونذيراً﴾ أي تبشر من أطاعك بالجنة وتنذر من عصاك بالنار .

قال محمد بن كعب في قوله تعالىٰ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ يعني إلىٰ الناس عامة ، وقال قتادة في هذه الآية : أرسل الله تعالىٰ محمداً ﷺ إلى العرب والعجم ، فأكرمهم على الله تبارك وتعالىٰ أطوعهم لله عز وجل .

وقال عبد الله بن عباس رضي الله عنهما : إن الله تعالىٰ فضّل محمداً ﷺ علىٰ أهل السماء وعلى الأنبياء! قالوا : يا بن عباس فبم فضله علىٰ الأنبياء؟ قال : إن الله تعالىٰ قال :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ﴾ [إبراهيم : ٤] .

وقال للنبي ﷺ : ﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ ﴾ [سبأ : ٢٨] .

فأرسله إلى الجن والإنس[1] . أيضاً قوله تعالىٰ :

---

(١) تفسير القرآن العظيم : ٥/ ٥٥٣ .

﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أَنزَلۡنَٰهُ إِلَيۡكَ لِتُخۡرِجَ ٱلنَّاسَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذۡنِ رَبِّهِمۡ إِلَىٰ صِرَٰطِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَمِيدِ﴾ [إبراهيم : ١] .

وهناك آيات مكية ، جاء فيها الحديث العام عن طريق ذكر (الإنسان) ليدلل القرآن أن هذه الرسالة الخاتمة هي رسالة لكل الناس ، لكل إنسان ، في كل زمان وكل مكان ، وهذه هي العالمية بحد ذاتها ، من ذلك قول الله تعالىٰ :

﴿لَقَدۡ خَلَقۡنَا ٱلۡإِنسَٰنَ فِيٓ أَحۡسَنِ تَقۡوِيمٍ ۝٤ ثُمَّ رَدَدۡنَٰهُ أَسۡفَلَ سَٰفِلِينَ﴾ [التين : ٤ـ٥] .

وقوله أيضاً : ﴿إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لِرَبِّهِۦ لَكَنُودٞ ۝٦ وَإِنَّهُۥ عَلَىٰ ذَٰلِكَ لَشَهِيدٞ﴾

[العاديات : ٦ـ٧] .

وهناك طائفة من الآيات القرآنية ، تخاطب الناس كافة ، وذلك عن طريق الكلمات الشمولية العامة ، ككلمة (العبد والعباد) وفيه دلالة واضحة علىٰ عالمية القرآن الكريم وعالمية الرسول الخاتم ﷺ ، من ذلك قول الله تعالىٰ :

﴿ثُمَّ أَوۡرَثۡنَا ٱلۡكِتَٰبَ ٱلَّذِينَ ٱصۡطَفَيۡنَا مِنۡ عِبَادِنَاۖ فَمِنۡهُمۡ ظَالِمٞ لِّنَفۡسِهِۦ وَمِنۡهُم مُّقۡتَصِدٞ وَمِنۡهُمۡ سَابِقُۢ بِٱلۡخَيۡرَٰتِ بِإِذۡنِ ٱللَّهِۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَضۡلُ ٱلۡكَبِيرُ﴾

[فاطر : ٣٢] .

وقوله أيضاً : ﴿۞ قُلۡ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسۡرَفُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ لَا تَقۡنَطُواْ مِن رَّحۡمَةِ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغۡفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًاۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ﴾ [الزمر : ٥٣] .

وهناك طائفة من الآيات توحي بعالمية هذه الرسالة الخاتمة ، بحيث تخاطب عامة الناس عن طريق إطلاق كلمة (بني آدم) سواءً كانوا عرباً أو أعاجم ، وأياً كان لونهم وجنسهم و . . . . ، كما في قوله تعالىٰ :

﴿۞ أَلَمۡ أَعۡهَدۡ إِلَيۡكُمۡ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ أَن لَّا تَعۡبُدُواْ ٱلشَّيۡطَٰنَۖ إِنَّهُۥ لَكُمۡ عَدُوّٞ مُّبِينٞ ۝٦٠ وَأَنِ ٱعۡبُدُونِيۚ هَٰذَا صِرَٰطٞ مُّسۡتَقِيمٞ﴾ [يس : ٦٠ـ٦١] .

وقوله أيضاً : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِىٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُوا۟ بَلَىٰ ۛ شَهِدْنَآ ۛ أَن تَقُولُوا۟ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ ﴾ [الأعراف : ١٧٢] .

وهناك طائفة أخرى من الآيات تدل علىٰ عالمية الرسالة ، لما فيها من خطاب عام ، كما في قوله تعالىٰ :

﴿ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٧﴾ لِمَن شَآءَ مِنكُمْ أَن يَسْتَقِيمَ ﴿٢٨﴾ وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [التكوير : ٢٧ـ٢٩] .

وقوله أيضاً : ﴿ تَبَارَكَ ٱلَّذِى نَزَّلَ ٱلْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِۦ لِيَكُونَ لِلْعَٰلَمِينَ نَذِيرًا ﴾ [الفرقان : ١] .

وقوله أيضاً : ﴿ إِنَّ فِى هَٰذَا لَبَلَٰغًا لِّقَوْمٍ عَٰبِدِينَ ﴿١٠٦﴾ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٦ـ١٠٧] .

وأيضاً هناك طائفة من الآيات الكثيرة والتي فيها الأدلة الواضحة على العالمية ، مثل كلمات : (البشر ، نفس ، الإنس والجن ، المشرق والمغرب ، السموات والأرض ، الأولين والآخرين ، أمة وأمم ، أهل القرى ، البرية . . .)[1] .

وهناك شيء آخر لابد من ذكره وهو :

أن الشريعة الإسلامية جاءت لتنسخ كل الشرائع التي قبلها ، فكتاب الشريعة العالمية هو القرآن الكريم ، وهو المعجزة الخالدة ، والذي يتجدد مع تجدد الأيام والدهور ، وكم حاول المستشرقون والأعداء الحاقدون أن يحرفوا ولو كلمة واحدة ، لكن الله سبحانه قطع على نفسه وعداً بحفظ هذا القرآن :

---

(١) للتوسع يراجع المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ، أو المعجم المفهرس لمعاني القرآن العظيم .

﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [الحجر : ٩] .

لذلك فسائر معجزات الأنبياء السابقين ذهبت مع ذهاب وقتهم ، وإلا فأين عصا موسىٰ اليوم؟ وأين تكليم سليمان للحيوانات وتسخيره للريح؟ وهكذا؟

أما معجزة النبي العالمي الخاتم ﷺ فهي باقية خالدة مع خلود الزمن ، قال الإمام ابن حزم رحمه الله : نسخ عز وجل بملته كل ملة ، وألزم أهل الأرض جنهم وإنسهم اتباع شريعته التي بعث بها ، ولا يقبل من أحد سواها ، وأنه عليه السلام خاتم النبيين لا نبي بعده ، برهان ذلك ، قوله تعالىٰ :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ اللَّهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ ﴾

[الأحزاب : ٤٠] .

وعن أنس بن مالك قال : قال رسول الله ﷺ : « إن النبوة والرسالة قد انقطعت » فجزع الناس ، فقال : « قد بقيت مبشرات وهي جزء من النبوة » .

كذلك تتضح مسألة نسخ الشريعة الإسلامية لكل ما سبقها من الشرائع في أنها جاءت لتستكمل كل ما يحتاجه الناس في دنياهم وأخراهم ، فلم تغلّب الجانب المادي على الجانب الروحي ولا العكس ، إنما :

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ﴾ [البقرة : ١٤٣] .

وبالتالي كانت الشريعة السمحة التي ترفع لواء اليسر لا التعقيد ، والرخص الشرعية لا الحرج ، كما قال الله تعالىٰ :

﴿ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ﴾ [الحج : ٧٨] .

وقال أيضاً : ﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾

[البقرة : ١٨٥] .

وقال أيضاً : ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ [البقرة : ٢٨٦] .

لذلك كانت الرخص الشرعية كي تناسب كل زمان ومكان : فمن لم يجد الماء تيمم ، ومن سافر جاز له الجمع والقصر في الصلاة والإفطار في الصيام . . . وهكذا .

وفي هذا أدلة كافية علىٰ صلاحية الإسلام لكل وقت وعصر ، وهذه هي العالمية الحقّة .

وقد فصّلت كتب الأصول هذه المسألة ، حيث تقوم الشريعة على تقرير الأحكام وتفصيلاتها علىٰ القرآن الكريم فإن لم نجد ذلك فإلىٰ سنة رسول الله ﷺ . فإن لم نجد ذلك فإلى الإجماع ـ إجماع أهل الحلّ والعقد ـ ، وإلا فإلى القياس ، وإلا فإلىٰ الاستصحاب ، وإلا إلىٰ العرف ، وإلا فإلىٰ سدّ الذرائع والمصالح المرسلة والاستحسان ، وفي هذا متسع كبير لكل ما يستجد من أمور في الحياة ، سواءً كان ذلك في المجالات المالية والاقتصادية ، أو في المجالات الطبية والتشريحية والعلمية ، وما إلىٰ هنالك ، وهذه المرونة في الشريعة لهي بحق مفخرة للمسلمين أولاً ولكل من أنزل عليهم كتب سماوية ثانياً ، وللعالم بأسره ثالثاً ، لكن من الذي يلتفت إلىٰ ذلك فيحسن صنعاً؟!

* * *

أما أن الرسول ﷺ عالمي في كل أمور حياته ، بحيث يستطيع أي فرد وفي أي زمان وأي مكان أن يتبعه ليصل إلىٰ الهداية والسعادة ، فذاك أمر تؤيده النصوص المنقولة والأمور المعقولة ، فعلىٰ سبيل المثال لا الحصر : ما رواه الإمام أحمد في مسنده : أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه جاء إلىٰ رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله ، إني أمرت بأخ يهودي من قريظة فكتب لي جوامع من التوراة ألا أعرضها عليك؟ قال :

فتغير وجه رسول الله ، قال الراوي ـ وهو عبد الله بن ثابت ـ : ألا ترىٰ وجه رسول الله؟ قال عمر : رضيت بالله رباً وبالإسلام ديناً وبمحمد رسولاً ، قال : فسري عن النبي ﷺ وقال : « والذي نفسي بيده لو أصبح فيكم موسىٰ عليه السلام ثم اتبعتموه وتركتموني لضللتم ، إنكم حظي من الأمم وأنا حظكم من النبيين » .

وما رواه الإمام أحمد أيضاً ، أن النبي ﷺ قال : « مثلي في النبيين كمثل رجل بنىٰ داراً فأحسنها وأكملها وترك فيها موضع لبنة لم يضعها ، فجعل الناس يطوفون بالبنيان ويعجبون منه ويقولون لو تم وضع هذه اللبنة؟ فأنا في النبيين موضع تلك اللبنة » .

لذلك أوضح القرآن الكريم خصوصية الرسل جميعاً لأقوامهم ، بينما الرسول الخاتم هو الرسول العالمي ، من ذلك قول الله تعالىٰ :

﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ أَنْ أَنذِرْ قَوْمَكَ ﴾ [نوح : ١] .

وقوله : ﴿ ۞ وَإِلَىٰ عَادٍ أَخَاهُمْ هُودًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥٓ ۖ أَفَلَا تَتَّقُونَ ﴾ [الأعراف : ٦٥] .

وقوله : ﴿ وَإِلَىٰ ثَمُودَ أَخَاهُمْ صَٰلِحًا ۚ قَالَ يَٰقَوْمِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُۥ ۖ ﴾ [الأعراف : ٧٣] .

وقوله : ﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَىٰ بِـَٔايَٰتِنَآ أَنْ أَخْرِجْ قَوْمَكَ مِنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ ﴾ [إبراهيم : ٥] .

وقوله : ﴿ وَرَسُولًا إِلَىٰ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ أَنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِـَٔايَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ ﴾

[آل عمران : ٤٩] .

وهكذا فكل رسول أُرسل إلى قومه ، فهو خصوصي في رسالته ودعوته إلا الرسول الخاتم ﷺ فقد كان عاماً عالمياً في دعوته ورسالته ، فخاطبه الله تعالىٰ :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا كَآفَّةً لِّلنَّاسِ بَشِيرًا وَنَذِيرًا وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ [سبأ : ٢٨] .

بل هو الرحمة للناس جميعاً :

﴿ وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء : ١٠٧] .

لذلك وجب اتباعه ﷺ ، فلا نبي بعده ، ولا كتاب سماوي يأتي به أحد بعد ما جاء الرسول بالقرآن الكريم ، قال تعالىٰ :

﴿ وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ ۚ قَالَ ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨١﴾ فَمَن تَوَلَّىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٨٢﴾ أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴿٨٣﴾ قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ ٱلْإِسْلَٰمِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴾

[آل عمران : ٨١ـ٨٥] .

وأما سبب تسمية الرسالة الإسلامية بأنها الخاتمة ، والنبي محمد ﷺ هو خاتم النبيين يعني أنه تمم الأنبياء بمجيئه ، وأنها تممت الشرائع السابقة بمجيئها ، لذلك قالوا : ختم الشيء هو بلوغ آخره ، قال تعالىٰ :

﴿ مَّا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَآ أَحَدٍ مِّن رِّجَالِكُمْ وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ وَخَاتَمَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا ﴾ [الأحزاب : ٤٠] .

فكانت هذه الرسالة الخاتمة جامعة بين ما صلح للأمم السابقة وأكملت ذلك بصلاح آخر يناسب الزمان والمكان ، لذلك كان فيها الصلاح المطلق والسعادة الأبدية فناسبت جميع الأمم وفي كل وقت

وحين . قال تعالىٰ : ﴿ ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا ﴾ [المائدة : ٣] .

وقد قام الرسول ﷺ بمهمة تبليغ الدعوة العالمية خير قيام ، فهو لم يعكف في جوار الكعبة ، ولم يكتف بالدعوة في مكة المكرمة .

بل راح يوسّع رقعة دعوته ﷺ ، فأرسل الرسل إلىٰ الملوك ، حتىٰ عدّ كتّاب السيرة النبوية ذلك إلىٰ الخمسين كتاباً[1] ، من ذلك ما رواه الإمام ابن القيم رحمه الله تعالىٰ : وكتب إلىٰ المقوقس ملك مصر والإسكندرية : « بسم الله الرحمن الرحيم ، من محمد عبد الله ورسوله ، إلىٰ المقوقس عظيم القبط ، سلامٌ علىٰ من اتبع الهدى ، أما بعد : فإني أدعوك بدعاية الإسلام ، أسلم تسلم ، وأسلم يؤتك الله أجرك مرتين ، فإن توليت فإن عليك إثم القبط :

﴿ قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ ﴾ [آل عمران : ٦٤] .

وبعث به مع حاطب بن أبي بلتعة ، فلما دخل عليه ، قال له : إنه كان قبلك رجل يزعم أنه الرب الأعلىٰ ، فأخذه الله نكال الآخرة والأولىٰ ، فانتقم به ، ثم انتقم منه ، فاعتبر بغيرك ، ولا يعتبر غيرك بك . فقال : إن لنا ديناً لن ندعه إلا لما هو خيرٌ منه . فقال حاطب : ندعوك إلىٰ دين الله ، وهو الإسلام الكافي به الله فقد ما سواه إن هذا النبي دعا الناس ، فكان أشدَّهم عليه قريش ، وأعداهم له اليهود ، وأقربهم منه النصارىٰ ، ولعمري ما بشارة موسىٰ بعيسىٰ إلا كبشارة عيسى بمحمد ، وما دعاؤنا

---

(١) للتوسع والتفصيل في ذلك يراجع أحداث السنة السابعة للهجرة في كتاب : سيرة سيد الأنام ، للمؤلف : ٤/ ١١٧ .

إياك إلىٰ القرآن إلا كدعائك أهل التوراة إلىٰ الإنجيل ، وكل نبي أدرك قوماً فهم من أمته ، فالحق عليهم أن يطيعوه ، وأنت ممن أدركه هذا النبي ، ولسنا ننهاك عن دين المسيح ، ولكنا نأمرك به .

فقال المقوقس : إني قد نظرت في أمر هذا النبي ، فوجدته لا يأمر بمزهودٍ فيه ، ولا ينهىٰ عن مرغوبٍ فيه ، ولم أجده بالساحر الضال ، ولا الكاهن الكاذب ، ووجدت معه آية النبوة بإخراج الخبء ، والإخبار بالنجوى ، وسأنظر ، وأخذ كتاب النبي ﷺ فجعله في حُقٍّ من عاج ، وختم عليه[1] .

وهذه العالمية عند رسول الله ﷺ هي التي جعلته يهتم بتربية صحابته تربيةً صالحة ليكونوا قدوة للأمم والشعوب في كل شيء ، وقد أثبت التاريخ نجاح هذه التربية إلىٰ حد عجيب .

كيف لا ، والقرآن يناديهم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ لِلَّهِ شُهَدَآءَ بِٱلْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ قَوْمٍ عَلَىٰٓ أَلَّا تَعْدِلُواْ ۚ ٱعْدِلُواْ هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾ [المائدة : ٨] .

كيف لا ، والقرآن يوجههم الوجهة الصحيحة :

﴿ تِلْكَ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا ۚ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴾ [القصص : ٨٣] .

كيف لا ، والقرآن يفهمهم المساواة بين الحاكم والمحكوم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ ﴾ [الحجرات : ١٣] .

---

(١) زاد المعاد : ٣/ ٦٩١ ، ويراجع : عيون الأثر لابن سيد الناس : ٢/ ٢٦٦ ، ودلائل النبوة للبيهقي : ٤/ ٣٩٥ ، وتاريخ الطبري : ٢/ ٦٤٥ .

وهكذا انطلق الرعيل الأول إلىٰ البلاد والعباد ، لا ليقتلهم ويحرقهم ويسلب خيراتهم ويأسر رجالهم ويسبي نساءهم ، إنما كما قال ربعي بن عامر رضي الله عنه في مجلس يزدجرد :

إن الله ابتعثنا لنخرج الناس من عبادة العباد إلىٰ عبادة الله وحده ، ومن ضيق الدنيا إلىٰ سعتها ، ومن جور الحكام إلىٰ عدل الإسلام .

لذلك عاش الناس من مسلمين ويهود ونصارىٰ ومجوس و. . . ، متآلفين متحابين في ظل شريعة الإسلام ، فكانت بحق هي الشريعة العالمية الخالدة :

﴿ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُۥ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَ ۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبًا ﴾ [الأحزاب : ٣٩] .

* * *

أما إن الإسلام عالمي في مبادئه وأنظمته ، فهذا أمر يطول البحث فيه ، ذلك لأن الباحث المنصف أنّىٰ دقق النظر في جوانب الإسلام ، سواءً كان ذلك في الأمور السياسية أو الاقتصادية أو العلاقات الدولية ، أو في العلاقات مع غير المسلمين ، أو في الجانب الأدبي ، أو في الجانب التربوي ، وصل إلىٰ حقيقة عالمية الإسلام ، وأن هذا الدين الخاتم ليس لفترة محددة ، ولا لشعب أو أمة فقط ، إنما هو دين لكل زمان ومكان ، ولنضرب بعض الأمثلة فقط : في المجال الخارجي وضع الإسلام ضوابط دقيقة لتعامله كدولة مستقلة مع الدول التي لا تدين بالإسلام ، وقد أوضحت كتب السياسة الشرعية ذلك بوضوح ، خاصة ما كتبه الإمام ابن تيمية رحمه الله في كتابه : السياسة الشرعية .

وقسم الإسلام الناس إلى مواطنين مسلمين يعيشون ضمن الدولة

الإسلامية ، ومواطنين من غير المسلمين يعيشون ضمن الدولة الإسلامية عليهم بعض الضرائب (كالجزية) لقاء حماية المسلمين لهم ، وهناك دار الحرب وقد وضعت لها أحكام مبسوطة في أمهات كتبنا الفقهية .

وبالتالي ضبطت مسألة السلام والحرب ضمن ضوابط دقيقة مثال : لا يجوز قتل الطفل ولا الشيخ المسن ولا المرأة ولا الراهب ولا . . . ، وفي الكتب الفقهية (كالخراج لأبي يوسف) نص المعاهدات التي أجراها الحكام المسلمون لأهل الذمة .

وفي المجال الداخلي : تقوم الحكومة الإسلامية على قواعد أهمها الشورى :

﴿ وَٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴾

[الشورى : ٣٨] .

وركزت الشريعة على مسألة طاعة ولاة الأمر الذين يسيرون على النهج القويم :

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ [النساء : ٥٩] .

وكانت فترة الخلفاء الراشدين فترة منضبطة بالقواعد الشرعية لحقوق المحكوم وعلاقته بالحاكم ، لذلك كان الخليفة يتورع عن أكل أموال الشعب ، ويسير بذلك ضمن مظلة الخوف من الله عز وجل ، ووصل الفرد إلى حريته الشخصية ، وشعر بالمساواة مع أقرانه ، ومورس القضاء كأحسن ما يكون ، وبالتالي عاش الجميع في سعادة وأمن وأمان . . .

وفي المجال الاقتصادي : وقف الإسلام الموقف الوسط ، فللفرد حق التملك وللجماعة حق في التملك وكلاهما يكمل الآخر .

وقد أثبتت الوقائع التاريخية أن النظام الإسلامي هو النظام العالمي الوحيد الذي استطاع القضاء علىٰ أعتىٰ مشكلة يعاني منها الإنسان وما

زال ، وهي مشكلة الفقر ، وذلك عندما طُبقت فريضة الزكاة تطبيقاً منهجياً عادلاً[1] .

ولم يأت الإسلام بثورة ضد الأغنياء أبداً وإنما أرسىٰ قواعد التفضيل في الرزق ، لا محاباةً مع فئة ضد فئة ، إنما من باب الابتلاء :

﴿ وَٱللَّهُ فَضَّلَ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلرِّزْقِ ﴾ [النحل : ٧١] .

لكن وضع أموراً تقرّب بين الفقراء والأغنياء : كالميراث ، والزكاة ، والتبرعات ، وما إلى هنالك كذلك اهتم النظام الاقتصادي الإسلامي بمسألة العمل والعمال : فكان التشجيع للعمال علىٰ الاهتمام بعملهم ، وكانت هناك حقوق واضحة للعمال ، إضافة إلى الأجر الأخروي من الله .

ومثله كان الاهتمام بمسألة الثروة علىٰ أن تكون ذات مصدر حلال ، وأن تنفق في أوجه الحلال ، حتى إنه جعلها من الأمور التعبدية ، وهذا أمر لا يصل إليه نظام كوني أبداً ومثله مسألة الملكية ـ الفردية والجماعية ـ .

وأما من الناحية الاجتماعية : فقد اهتم الإسلام بمسألة الزواج الحلال ليغلق كل المنافذ التي تؤدي إلى الحرام ، ورغب الإسلام بالزواج ، ووجَّه الأغنياء والحاكمين على الأمر وولاة الفتيات والشباب أن يساعدوا في مسألة وضع الحلول المناسبة للزواج ، وإلا : « تكن فتنة في الأرض وفساد عريض » ، وركز الإسلام على مسألة العفة والصون ، فلا انفلات ولا عرض للشهوات على قارعة الطرقات ، إنما :

﴿ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَـٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

---

(١) للتوسع يراجع : المسيرة التاريخية لتطبيق فريضة الزكاة (دراسة فقهية اقتصادية تاريخية) للمؤلف .

﴿خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ﴾

[النور : ٣٠ـ٣١] .

لذلك وضعت قوانين دقيقة لبيت الزوجية : علاقة الأب مع الأم ، وعلاقتهما مع الأولاد ، وكل ذلك تحت مظلة : « كلكم راع وكلكم مسؤول عن رعيته » .

﴿ وَلَهُنَّ مِثْلُ الَّذِي عَلَيْهِنَّ بِالْمَعْرُوفِ وَلِلرِّجَالِ عَلَيْهِنَّ دَرَجَةٌ﴾ [البقرة : ٢٢٨] .

لذلك كان النظام الاجتماعي والتربوي الإسلامي نظاماً دقيقاً واضحاً ، عالمياً يناسب كل زمان ومكان ، ومثل ذلك نستطيع القول عن مسألة مهمة وهي التكافل والتكامل الاجتماعي بين الفرد وأسرته ، وبين الفرد والجماعة ، وبين الأمة والأمم ، وفي ذلك أدلة واضحة على ما قلناه سابقاً : لقد سبقت عالمية الإسلام عولمة اليوم بأشواط وأشواط ، لكن العيب ليس في الشريعة الإسلامية ، إنما . . . . . !! .

* * *